محمد مندور .. ناقدًا

بقلم عبد العزيز الدسوقي

فتى ريفي ... خرج في فجر الحياة ليبدأ رحلة العلم ... وبه ظمأ حار الى المعرفة ، خرج في عام ١٩١٥ من قرية صغيرة بمديرية الشرقية كان يطلق عليها حينذاك (كفر الدير) ... خرج الى مدرسة الالفى الابتدائية ببندر « منيا القمح » .

ثم انتقل هذا الفتى الريفي الظامىء الى المعرفة الى مدرسة طنطا الثانوية وظل بها حتى حصل على شهادة البكالوريا في عام ١٩٢٥ .

وبدأ الشاب الريفي محمد بن عمي الشيخ عبد الحميد موسى مندور ، يستعد لرحلة جديدة الى العاصمة ... وشد الرحال في عام ١٩٢٥ الى القاهرة حيث التحق بالجامعة في كلية الاداب ـ (قسم اللغة العربية واللغات السامية) ومن الغريب انه حرص على ان يلتحق ايضا بكلية الحقوق ونال ليسانس الاداب عام ١٩٢٩ وليسانس الحقوق سنة ١٩٣٠ .

رحلة الى الخارج

ثم ارتحل هذا الشاب القروي الظامىء الى المعرفة مع بعثة الجامعة المصرية الى فرنسا وهناك ظل يعب من الثقافة الغربية ، ويتأمل اساليب الحياة الجديدة ، ويزور معالم الماضي التي خلفتها الحضارة الفرنسية على صفحة باريس ، ويطوف بأمكنة الوحي والالهام ... لم يكن يبحث عن المعرفة في بطون الكتب واروقة الجامعات فحسب ... بل كان يفتش عنها في الحياة وبين الناس ... وكان يقول : « اننا لم نسافر الى اوروبا لنبحث عن المعرفة في بطون الكتب وحدها والا لاستقدمنا الكتب ، وما احتجنا الى تحمل مشاق الغربة » .

واستفاد من الحياة اكثر مما يستفيد من الكتب والمراجع ، عرض صفحة روحه طوال تسع سنوات ـ من سنة ١٩٣٠ الى عام ١٩٣٩ ـ لهذه الحياة الجديدة الهادرة في باريس وعاد الى الوطن بهذا الزاد الثقافي الكبير في عام ١٩٣٩ ... عاد بعد ان درس في السربون اللغتين اليونانية القديمة والفرنسية وادابهما ... ونال دبلوم معهد الاصوات ، ودبلوما عاليا في الاقتصاد السياسي والتشريع المالي ...

العودة

ولكن هذا الشاب الريفي الظامىء الى المعرفة ... عاد بدون « الدكتوراه » كما عاد من قبله توفيق الحكيم ... وتلك كانت عقبة حياته ، وبداية المشكلات التي غيرت مجراها فيما بعد واشتغل بالتدريس في جامعة القاهرة وجامعة الاسكندرية من عام ١٩٣٩ حتى عام ١٩٤٤ ... ثم اضطرته الظروف والاحداث الى ان يخرج من الجامعة ، ويشتغل بالحياة العامة والصحافة ... ويبشر بالعدالة الاجتماعية والديمقراطية ... ثم قامت الثورة في عام ١٩٥٢ فحققت اماله ... وانعشت روحه فعاد يعكف على الدراسات الادبية والفنية ويمارس نشاطه التعليمي في المعاهد العالية حتى غادر دنيانا في التاسع عشر من شهر مايو سنة ١٩٦٥ واستقرت به النوى بعد طول كفاح !!

تضاريس حياته ومعالم منهجه النقدي

وقفت عند هذه التفصيلات الصغيرة لانها هي التي لونت حياته النقدية والادبية فيما بعد وظللت اكرر عبارة « الفتى الريفي الظامىء الى المعرفة » لانها في نظري مفتاح شخصيته والذين يعرفون الدكتور محمد مندور يدركون هذا جيدا وقد اكتسب رحمه الله من طبيعة الريفي صفاء الروح وهدوء القلب . فكان يثير اعقد القضايا الفكرية واخطرها في بساطة عجيبة ويتحدث عنها كما يتحدث عن ابسط الاشياء في حياته اليومية العادية .

واكتسب من الظمأ الى المعرفة ، انفعال العقل وحرارته ... وهذا هو السر الكامن خلف كل المعارك التي خاضها وظل يخوضها حتى اخر يوم من ايام حياته .

مراحل حياته

ويمكن ان نقسم حياة محمد مندور الى ثلاث مراحل :

المرحلة الاولى : وتشمل فترة الطلب والتكون العلمي والتدريس في الجامعة وتنتهي في عام ١٩٤٤ .

المرحلة الثانية : وتشمل على حياته العامة واشتغاله بالصحافة والسياسة وتنتهي عام ١٩٥٢ .

المرحلة الثالثة : وتشمل الفترة التي عاد فيها الى الانتظام في تدريس الادب والنقد في معهد الفنون المسرحية ، والمعهد العالي للدراسات العربية ، الى جانب مقالاته الادبية والاجتماعية التي كان ينشرها في الصحف والمجلات وتنتهي هذه الفترة بانتهاء حياته رحمه الله في ١٩ مايو سنة ١٩٦٥ .

وبطبيعة الحال لا نقصد بهذه المراحل الثلاث تقسيما صارما تتباين فيه المراحل ، فحياة الانسان تيار واحد متدفق مستمر وانما ميزنا هذه المراحل لتكون بمثابة العلامات البارزة التي تضيء لنا الطريق ، وتكشف امامنا سبيل الدراسة والتقويم .

وقد تأثرت افكار محمد مندور النقدية والادبية بظروف حياته واحداثها ، حتى ليمكن ان نقسم مراحل حياته الادبية والنقدية الى مراحل تشابه مراحل حياته واحداثها .

آ ـ فقد استفاد من المرحلة الاولى ومن فترة تدريسه بالجامعة ادوات الناقد واصول فنه ... ولهذا تميزت هذه المرحلة من حياته النقدية بتفسير النصوص والاهتمام بالقيم الجمالية والفنية والتعليل الفني المرهف المستند الى مصادر الادب والفن .

ويمكن ان نطلق على هذه المرحلة من حياته النقدية : المرحلة الجمالية .

ب ـ اما المرحلة الثانية فهي المرحلة التوجيهية او المرحلة الايديولوجية ، وفي هذه المرحلة كان لا يقتصر الدكتور مندور على التماس القيم الجمالية وتبين مصادر الادب والفن فحسب بل كان يلتمس ايضا اهدافهما ووظيفتهما في تطوير الحياة الى ما هو اجمل واكثر اسعادا لبني البشر .

المرحلة الجمالية

ومن الواضح ان ظروف حياة الدكتور مندور هي التي املت عليه منهجه النقدي ... فطبيعة الدراسة الجامعية جعلته يتجه هذا الاتجاه الجمالي الذي يفتش عن القيم الجمالية في العمل الادبي والفني ... ويدرس ويفسر ويتذوق ...

وتلألأت في سماء حياته النقدية خلال هذه المرحلة الجمالية ، سمات كثيرة من مناهج النقد الادبي التي كانت تتصارع في الاداب الغربية في اخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين ، ويمكن للدارس ان يتبين في سهولة ملامح المنهج التأثري والمنهج الموضوعي في كتابات الدكتور محمد مندور الاولى ، وتعتبر هذه الفترة ربيع حياته الادبية والنقدية وفيها ظهرت كتبه اللامعة التي احدثت في الحياة الادبية والنقدية تيارا منعشا خصبا ... ومن منا لا يذكر (النقد المنهجي عند العرب) (١٩٤٦) وهو البحث الذي نال به الدكتوراه في عام ١٩٤٣ ، ونماذج بشرية (١٩٤٥) وفي الميزان الجديد (١٩٤٥) وترجماته لكتاب « دفاع عن الادب » ـ لجورج ديهامل (١٩٤٣) ومن الحكيم القديم الى المواطن الحديث ، سنة ١٩٤٤ . « ومنهج البحث في اللغة والادب » للاستاذين لانسون ومايبه سنة ١٩٤٦ .

وقد بدأ جولته النقدية مع القدماء واكد ـ رحمه الله ـ (١) « ان في الكتب العربية القديمة كنوزا نستطيع اذا عدنا اليها وتناولناها بعقولنا المثقفة ثقافة اوروبية حديثة أن نستخرج منها الكثير من الحقائق التي لا تزال قائمة حتى اليوم » وقد وقف طويلا عند القاضي (الجرجاني) صاحب (الوساطة) (و الامدى) صاحب « الموازنة » وناقش ابن سلام وابن قتيبة وغيرهما من اعلام النقد العربي القديم .

وقد ادلى برأي واضح في الخصومات والمجادلات التي كانت تثور بين هؤلاء الاعلام واكد الدكتور مندور هذه الفترة من حياته « ان (٢) الذوق لا بد ان يكون من مراجع الحكم النهائي في الادب ونقده ما دام يستند الى اسباب تجعله ـ في حدود الممكن وسيلة مشروعة من وسائل المعرفة التي تصح لدى الغير » واستطاع بهذه الروح الشابة ان يميز ـ في كتابه النقد المنهجي عند العرب ـ بين النقد وتاريخ الادب ، وان يوضح المقاييس النقدية التي كانت شائعة عند العرب في صورة جديدة جذابة لفتت اليه الانظار ، واثارت من حوله المعارك والخصومات .

في الميزان الجديد

وبدأ يدخل المعارك الادبية الحامية الوطيس ... مع العقاد ومحمد خلف‌الله وسيد قطب وغيرهم ويمثل كتابه « في الميزان الجديد » ذروة هذه المعارك ... وفي رأيي ان هذا الكتاب احدث تيارا نقديا جديدا في ادبنا المعاصر كالتيار الذي احدثه « الديوان » للعقاد والمازني في مطلع هذا القرن مع الفارق بين ظروف الحياة وطبيعة كل من هؤلاء الادباء ... وهذا هو السر في ان الدكتور مندور يعتبر من رواد نقدنا المعاصر ... وهذا الكتاب في حاجة الى دراسة طويلة تبين النظريات النقدية التي بثها الدكتور مندور بين صفحاته ، وتوضح المصادر التي استقى منها مندور ثقافته وذوقه الادبي ... ليس هنا مجال تفصيلها .

ولكن لا بد من الاشارة الى معركة الشعر المهموس التي اصبحت علما على الدكتور مندور ، فخلفها ترقد ملامح مذهبه في نقد الشعر خلال هذه المرحلة .

والهمس في الشعر ليس معناه الضعف ـ كما يقول الدكتور مندور ـ ولكنه الشعر الانساني الذي نهتز لنغماته ... والشاعر هو الذي يهمس فتحس صوته خارجا من اعماق نفسه في نغمات حارة ، ولكنه غير الخطابة التي تغلب على شعرنا تفسده ... وقد اتخذ ميخائيل نعيمه نموذجا للهمس في الشعر ونسيب عريضه نموذجا للهمس في النثر .

ولقد جرت عليه هذه الاراء كثيرا من الاعاصير والعواصف واتهمه تلاميذ المرحوم العقاد بان ما يسميه الهمس في الشعر ، يعود الى مزاج خاص اقرب الى المرض منه الى الصحة ، ووقف الدكتور مندور صامدا امام هذه الاعاصير وراح يقتتل حول ارائه في قوة وعنف تذكرنا بعنف المعارك التي كانت يثيرها المرحومان العقاد والمازني حول الشعراء والكتاب ...

فعندما يقول مندور ـ رحمه الله ـ « الشاعر العظيم من ينجح في ان يهزك ... وهو قد يستطيع ذلك بضخامة موسيقاه ، كما قد يستطيعه برقتها » واما اولئك الذين نقرأ لهم فلا ينبض منك حس ولا يهتز قلب ، فلست ادري من اين يأتيهم الشعر ، لقد تصفحت مثلا « اعاصير مغرب » فعجبت لمن يجرأون على تسميتها شعرا وهي نثرية في مادتها ، نثرية في اسلوبها ونثرية في روحها ، ونثريتها بعد مبتذلة سميكة ، حتى الاحساس فيها شيء لا تطمئن اليه النفس(٣) » ومع اقراري بالاسراف الذي يسود لهجة الدكتور مندور الا انها على اية حال تذكرنا بضراوة المعركة التي خاضها العقاد مع شوقي .

ومن المهم هنا ان نقرر ان الدكتور مندور كان في هذه المرحلة من حياته النقدية ينكر اقحام النظريات الفلسفية والاجتماعية على الادب ، وقد هاجم المرحوم العقاد عندما كتب فصولا طويلة ليدلل على ان ابا العلاء قال بالاشتراكية وبقاء الاصلح ... واكد ان هذا لا يغني شيئا عن فهمنا لنفسية ابي العلاء ومأساته التي صدر عنها (٤) .

وهاجم الاستاذ محمد خلف‌الله لاقحامه النظريات النفسية على الادب ودعا (٥) الى استقلال الادب عن غيره من مظاهر نشاطنا الروحي ... استقلاله بمناهجه وموضوعاته ، كما استقلت الفلسفة عن المعارف الانسانية الاخرى .

ووصف الذين يطلبون وضع الادب في خدمة الحياة الراهنة ومعالجة مشاكلها بالمرض والخلط بين القيم ... واكد ان موضوع الخطر هو ان نقحم على دراستنا معارف اقل ما فيها من اضلال هو صرفنا عن ان نركز نظرنا في الادب كفن لغوي واهمين اننا تجدده اذ نتناوله بمبادىء علوم اخرى. واما علوم اللغة ، ومناهج اللغة ، فذلك موضع دراستنا الذي نعتز به ...

المرحلة التوجيهية

ولم يستمر الدكتور محمد مندور في التدريس في الجامعة ، واضطرته الظروف الى الخروج من الجامعة الى ساحة الحياة العامة وتقاذفته امواجها المتلاطمة ، وتعرضت حياته الخاصة لاحداث عديدة تركت على صفحة روحه ندوبا كثيرة ... ولكنه كان يستقبل كل ذلك بطبيعة الريفي الصافية ، ولذلك لم تستطع الاحداث العاصفة التي تعرض لها على ضراوتها ان تطمس نفسه ، او تقلل من ظمأه الحار الى المعرفة ، ولكنها زودته برصيد من التجارب والخبرات كان لها اكبر الاثر في تطوره ، الى مرحلة نقدية جديدة . غير المرحلة الجمالية ... مرحلة النقد التوجيهي ... وتجلى في هذه المرحلة منهجه الجديد الذي اطلق عليه « المنهج الايديولوجي » الذي يتجاوز مصادر الادب والفن الى اهدافها ووظائفهما ، ويؤكد الدكتور مندور ان المنهج الايديولوجي يرى ان الادب والفن قد اصبحا للحياة ولتطويرها الدائم

---

(١) النقد المنهجي عند العرب ص ٥ الطبعة الثانية سنة ١٩٤٨

(٢) نفس المصدر والصفحة .

(٣) في الميزان الجديد ص ٧٣ .

(٤) المصدر ص ١٠٥ (٣ = ٤) المصدر ١٦٢ .

(٥) في الميزان الجديد ص ١٦٢ .

نحو ما هو افضل واجمل واكثر اسعادا للبشر ... وحان الحين لان يلتزم الادباء والفنانون بمعـــارك شعوبهم وقضايـــا عصرهم ومصير الانسانية كلهـا (٦) .

وعلى اســاس هذه الحقـــائق يرى الدكتور مندور ان المنهـــج الايديولوجي في(٧) النقد له ثلاث وظائف هي :

١ ــ تفسير الاعمال الادبية والفنية وادراك مراميهـا القريبـــة والبعيـــدة .

٢ ــ تقييم العمل الادبي والفني في مستوياته المختلفة (من حيث المضمون والشكل الفني ووسائل العلاج كاللغة في الادب وتوزيع الضوء والظلال في التصوير مثلا) .

٣ ــ توجيه الادباء والفنانين في غير تعسف ولا املاء ــ الـــى التبصر بقيم العصر وحاجـات البشر ومطالبهم وهكذا يتحدد مجـــال عمل المنهج الايديولوجي في النظر في مصادر الادب والفن واهدافهما كما حدد وظائفه في تفسير وتوجيه الاعمال الادبية والفنية(٨) .

وتمكن الدكتور محمد مندور من خلال هذا المنهج ان يناقش كثيرا من الاعمال الادبية والفنية وان يثير كثيراً من المعارك كمـا اثـــار في مرحلته الاولى . ولعل من اكبر هذه المعارك المعركة التي ثارت بينـه وبين الدكتور رشاد رشدي حول طبيعة الادب والفن واهدافهما ...

وفي هذه المرحلة اتجه نتـــاج الدكتور محمد مندور الى المسرح والقصة والرسم والفنون التشكيلية ... ولم يقتصر على الشعر كما غلب على دراساته في المرحلة الاولى .

على ان هذه المرحلة غنيت بالدراسات الجـــادة المتعددة التي اقتضتها طبيعة عمله في معهد الفنون المسرحية ومعهد الدراســـات العربية العالية ... وصدرت فـي كتب منهـــا « مسرحيات شوقي » ، « الادب ومذاهبه » و « الشعر المصري بعد شوقي » ... وغيرهـــا وغيرهـــا ... وهذه الدراسات لم تتقيد بمنهجه الايديولوجي ويمكن ان نقرر انها تمثل منهجه المتكامل الذي هضم كل هذه الثقافات وحولها الى زاد شهي كون مزاجه وذوقه ...

ولا بد من ان نقرر ان الدكتور مندور كان دائما يحيل كل مطالعاته ودراساته في الاداب العالمية الى عصير ثقافي يتخلل فكره وقلبه ويتسم بطابعه الشخصي الاصيل ، فاذا ما خرج الى الوجود دراسات وابحاثا كانت افكار محمد مندور لا افكار الاخرين ، وهذا سر اخر من اسرار تأثيره في حياتنا الادبية والفنية ...

وظل ــ رحمه الله ــ يحمل القلم يوجه ويعلم حتى توقف القلب الكبير في التاسع عشر من شهر مايو سنة ١٩٦٥ ... وعاد الرجـــل الريفي الظامىء الى المعرفة في صندوق من الخشب الى كفرالدير او (كفر مندور) مرة اخرى ... عاد ليستقر في رحاب الله ...

عاد ... بعد ان ترك للحيـــاة الادبية اريجـــا معطرا من الادب والفـن ...

عاد بعد ان خط على صفحـــة الحيـاة خطوطا عميقة ستصمـد لعاديـات الزمـان .

القـــاهرة — **عبد العزيز الدسوقي**

---

(٦) النقد والنقاد والمعاصرون ص ٢٢٥ .
(٧) المصدر ص ٢٣٧ .
(٨) المصدر ص ٢٣٨ .

في الطريق

ليتنا لم نبتسم حين التقينا ..
ليتنا لـم نتكلم ..
حينما طافت عيون بعيون في الزحام ..
ونظرنا في مرايا شاحبه ..
ليتنا جزنا سريعا .. وعبرنا ..
واختفينـــا ..
قبل أن تقسو علينا الكلمات ..

***

ليتنا لـم نتكلم ..
أحرفا واهنة .. أجوف من شكل العدم
أحرفا زيتية .. أثقل من طعم الندم ..
علقت فوق شفاه ميته ..
عرفتنا أن ما نرجوه ضاعا ..
ليتنا لـم نتكلم ..
ليتنا حين التقينا ، لم نقل الا وداعا .

***

طالت الوقفة في عرض الطريق ..
لحظة .. أطول من دهر سحيق ..
أثقلتنا .. فابتسمنا
بسمات .. لم نزل نلعق من آثارها طعم الصدأ ..
وتمدين — بلا قصد — يدا ..
وتقولين : سألقاك غدا ..
أحرفنا ميتة فوق شفاه ميتة ..
ليتنا لـم نتكلم ..

القاهرة — **حلمي حنا مقار**